صفحة من كتاب

« مرارة اليتم »

[مهداة إلى الصديق المفجوع بوالده]

للأستاذ شكري فيصل

— ١ —

حين مددت يدي أمس إلى ساعي البريد لم أدر سر هذه الخفقة العنيفة التي اضطرمت بها جوانحي فانتفضت معها انتفاضة المذعور ، ووجدت في نفسي ألواناً من الأحاسيس لم أتمالك أن أسكن إليها ، أو أطمئن معها ، أو أدرك سر التأثير فيها ... فلقد ماجت بين جنبي لاهبة مستعرة ، فإذا أنا أصلى بلهبها ، وأكوى بلفحها ، وإذا كياني كله جمرة متقدة في أتون من اللظى والنار

ولم يكن ذلك من عادتي في شيء ... لشد ما كنت أضاحك الساعي وأطرب له ... ولشد ما كنت أقبل عليه وأدنو منه ... لقد كنت ألقاه بالأمل الطروب الذي ينساب ابتسامة عريضة ، وتحية مرحة ، ولقاء حلواً ... وكنت أرقب موعده ، وأنتظر مقدمه ، وأعد له الساعات ؛ فليس أحب إليّ من الساعة التي تصافح فيها يداي هذه « الرسائل » ، أنسم فيها عبير الوطن ، وأنعم بدنيا الأهل ، وتنتسق لي الذكريات اللطاف ، وأعيش في هذا العالم الندي : نشوان بالرؤى الحالمة ، ثملاً بالأماني الناعمات .

ولكن كان لي في أمس شأن آخر ... لم تتفتح شفتاي عن التحية الحلوة ، ولم تنطلق في دنياي البسمة الطروب ، ولم تشع في وجهي قسمات الأمل . كان كل شيء في نفسي يهتز ويضطرب كأنما كان ينشر في السماء الصافية أمواه السحاب وأمواج الضباب ، وكأنما يبعث في العالم الهادئ الآهات الصاخبة والنفثات الناضبة . وكانت تطيف بي طوائف كابية معتمة لا أتبين معها وجه النور ، ولا ظلمة الغسق ؛ ولا أدري لما عبق الأمل أو مرارة الواقعات ، ولا أحس أهي نذر الشر أو بشارات الخير !

وحين أخذت أنزع هذا الغلاف الرقيق لم أدر أين أبتدأ منه . كنت كلما أمسكت بطرف منه توليت عنه إلى طرف آخر ؛ فإذا الكتاب يضطرب بين يدي ، وإذا أنا أدور معه كالخابط في الليلة الظلماء لا يدري أين يضع قدمه لأنه يخشى أن تزل به ... لكأني كنت أخادع نفسي فلا أفجؤها بالآهة الحرّى والدمع المتون

— ٢ —

وأخذت أقرأ من هنا وهناك لم أبتدئ مع الكلمات الأولى كما يفعل الناس ، لأني لم أك أملك الإرادة الهادئة والطبع المتزن . ولكنما كنت أعدو وراء الكلمات وأمضي في ثنايا الأسطر ، لألقى الشر وأجد خبر المصيبة

إن الفراشة الوادعة ليست هي وحدها التي تسعى إلى النور لتلقى حتفها فيه ، ولكننا في ساعات المصيبة أشبه بهذه الفراشات ؛ غير أننا نتداعى في قبور الظلمة ومسارب الكهوف لتلتهمنا الآلام الفواجع

— ٣ —

لقد عرفت في كتب صاحبي أناقة الصورة وجمال الظاهر :

في المعركة الحمراء ولا سالت نفوسهم على ظُبي الأسنة ، وشفرات السيوف ... ولو واجههم العدو في حومة الوغى لوجدهم فرسانها وسادتها ، ولكنه أخذهم غدراً وعدا عليهم وهم آمنون في فرشهم فأخذ الرجل من جنب زوجته وولده ، أو تعلم جميعاً لم يتورع عن قتل النساء ، ولا عن ذبح الذراري ، ولم يكسر عليهم الأبواب ويدخل دخول الناصب القوي ؛ ولكنه مر في السدفة الحالكة مرور اللص الجبان ، فراغ عن مواطن الجندية ومنازل الكماة لأنه ليس من أكفائهم ، وتخير هذه البقع الآمنة حول بيت الله فصب عليها كل ما في النفوس الشريرة من خسة ودناءة ، ولعله أراد بنيرانه بيت الله ، أو لعله أراد بها قبر السيد الذي علم قومه كيف يكون النبل

فيا رحمة الله على النبل وأهله ، وسلام على هذه الأرواح الطاهرة ، وعلى الظالمين لعنة الله

علي الطنطاوي

وكنت أجد فيها مرح الطفولة وعبث الصبا؛ وكانت تنشر لعيني ذكريات الماضي وأصداء السنين . لطالما هدأت إلى ظلالها الوارفات بعد الطواف البعيد ؛ كانت أشبه بالزهرة الفواحة التي تتفتح عنها نفس يهزها الأمل ، ويحدوها الرجاء ، وتزدهر من أمامها مسالك الحياة ... ولكنها اليوم شيء آخر ، لقد عصفت بها العاديات فعرّتها من الجمال الضافي ، وسطت عليها لفحات النار فذهبت برواتها الزاهي ... لم يعد كتاب صاحبي إلا الهشيم الذي تذروه الرياح العاتية : تلطمه بالصيبة ، وتصدمه بالفجيعة ، وتنال منه بالحزن

وفي طرف منه جمدت عيناي وبيست أطرافي . كان يهتز في يدي كما تهتز الأوراق البالية في أعقاب الشجرة الضخمة ، فتسمع لها حشرجة الروح ، وأنين الاحتضار ... لكأن كلمة الموت التي طرقت مسمعي فيه ، قد ملأت كل كياني ، فإذا أنا وهذه الدنيا من حولي هامد هموذ الجثة . صامت صمت الموت ... موحش إيحاش القبر

— ٤ —

يا للمساكين الذين تنالهم الدنيا بأحزانها السود ، وتنشب مخالبها الحادة في أجسادهم الطرية الرخوة ... إنهم لم يستكملوا بعدُ ريعان الفتوة وزهرة العمر وربيع الشباب ، ولكن الحياة تريدهم على أن يجدوا الربيع القاحل ، والزهر الآفل ، والريعان الماحل ... إنها لتريدهم على الحزن ، ولتضطرهم إلى البكاء حين تضحك السماء وتبتسم الأرض ... لا تبالي هذه القلوب الساذجة الضاحكة ، ولا تأبه لهذه النفوس الخيرة النبيلة ، ولا يعنيها أن تظلم باليتم فتياناً عرفوا الحياة نعيماً وأملاً وجنة

يا ويح اليتيم... كان بالأمس ينشأ في أيام من الورد والسوسن ، وفي أجواء من العطر والزهر ، وفي دُنى من النعيم والسحر ؛ ولكنه اليوم يغمض لهول المصيبة عينيه ، ويصم أذنيه ، ويطرق برأسه . فإذا أفاق وأصغى ونظر فلن يجد إلا الصحراء والظلماء واليأساء ؛ لأن الدنيا عدت على عالمه الهانئ فذهبت بسطره وسحره ، وعفت على جناته الناعمة فذهبت بورده وزهره ، ودفنت عرائسه المائسات في قتام العاصفة ، وتركت له أغصان الأسى ينثرها بيده على الهيكل الحبيب والقبر الخصيب

— • —

لم أعد أستطيع أن أقرأ ، لأن الدموع التي كانت تتقرح منها جفوني غشت عينيّ ؛ فإذا أنا أهيم في أودية مرعبة من الحسرة المضنية والألم العميق

وإني لألمح صديقي فما أملك أن أطيل النظر إليه والتأمل فيه . لقد عرته الدنيا من نعمة الأبوة ، كما تعرى الزهرة الناشئة من أوراقها الخضر ؛ فما يملك أن يرد عن نفسه المكاره العاديات

لشد ما يبعث الأسى هذا اليتم الفاجئ في الليالي السود ، ينتزع النعمة الرافلة ، ويتعقب الهناء الوارف ، ويبدد الحلم السعيد ، ويسوق هؤلاء المساكين الفتيان وهم في غضارة الصبا وطراوة الشباب ، إلى دنيا من الهموم والكآبات

ولكن لا عليكم أيها الشباب الذين يفقدون آباءهم في أحلى ساعات العمر وأجل أوقات الحياة ، ويتطلعون حولهم فلا يجدون القلب الذي ينهلون منه ، والساعد الذين يتكئون عليه ، والصدر الذي يدفنون وجوههم فيه ، لأن الآلام المبكرة ليست إلا السحاب الجون يفيض أمطاراً ومياهاً ليغسل الأدران ، ويطهر الأجواء ، ويصفي النفوس

« القاهرة »

شكري فيصل

إدارة البلديات — مطافىء

تقبل العطاءات بمجلس كفر الزيات البلدي لغاية ظهر ٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ عن توريد خراطيم مطافىء وتطلب الشروط من المجلس نظير ١٠٠ مليم .

٨٣٨٧